

السياسة العثمانية

تجاه الايزديين خلال نصف قرن

« ١٧٥٢ - ١٧٠٤ »

المقدمة:

سيطر العثمانيون خلال الربع الاول من القرن السادس عشر على الجزء الاكبر من كوردستان بما فيه مناطق الايزديين في سنجار وشيخان، والتي اصبحت ادارياً تابعة لولاية الموصل الا في الحالات الاستثنائية تتبع والي بغداد.

عانى الايزديون المأسى والاضطهاد على يد السلاطين العثمانيين وولاتهم في الولايات المجاورة لهم، فقد شنوا هؤلاء حملات عسكرية متتالية على مناطقهم والتي ترافقها عمليات النهب والسلب وحرق وتدمير قراهم وسبى نساءهم واطفالهم، تلك الحملات التي اثرت على نفسية الفرد الايزدي، بحيث لا زال يذكرون احداثها كصفحات سوداء من تاريخهم والتي تعرف عندهم بـ (الفرمانات). ومن المفيد بالذكر لا تتوفر في المصادر التاريخية سوى معلومات نادرة عن تلك الحملات التي شنت بحق



قادر سليم شمو

الايديين في القرون الثلاثة الاولى من السيطرة العثمانية اي حتى القرن التاسع عشر، حيث تم التطرق اليها في اطار تناول المؤرخين لاحداث المنطقة واخبار السلاطين العثمانيين وولاتهم، لذلك لا تتيسر بين يدي الباحث معلومات كافية لمعرفة تفاصيل تلك الحملات.

الحملات العسكرية العثمانية على الايزدية:

تمثلت سياسة الدولة العثمانية العامة تجاه الايزديين خلال القرن الثامن عشر بتوجيه حملات عسكرية متعاقبة صوب مناطقهم في شنغال والشيخان، غالباً كانت تلك الحملات يقودها حكام الايالات المجاورة خاصة ايالتي بغداد والموصل^(١)، وكان نتيجتها يتحملون الايزديون القتل والسبي والتخريب^(٢). وقبل الدخول في تفاصيل تلك الحملات لا بد من توضيح الحجج والاسباب التي اتخذها العثمانيون ذرائع لتبرير حملاتهم العسكرية اللانسانية ضد الايزديين.

رغم ان تلك الحملات كانت تدخل في اطار السياسة العثمانية العامة ازاء الايزديين ومناطقهم من اعتبارهم كفرة ومرتدين حسب وجهة النظر العثمانية انذاك، ولكنها كانت تشن على الايزديين بحجج اخرى ايضاً، وتعد مسألة خروجهم عن القانون وممارستهم اعمال الشقاوة من قبيل النهب والسلب وقطع الطرق^(٣) والمهاجمة على القوافل التجارية المارة بين الموصل وماردين^(٤)، وهي ظاهرة موجودة لدى معظم العشائر في الدولة العثمانية انذاك^(٥)، الا انه اتخذها ولاة العثمانيين ذلك ذريعة لاضطهاد الايزديين وشن الحملات العسكرية على مناطقهم في كوردستان الجنوبية، والقيام بسلب ونهب اموالهم وسبي نساءهم واطفالهم.

كذلك من خلال مراجعة احداث تلك الحملات، يتبين بانه هناك عوامل اخرى دفعت بالدولة العثمانية الى انتهاج تلك السياسة تجاه الايزديين، وفي مقدمتها العامل المادي المتمثل في محاولة للاستيلاء على خيرات الايزديين ونهب مقدراتهم المادية والبشرية، وغالبا ما تكون هذا العامل الرئيس في شن تلك الحملات، اذ كانت عمليات النهب والسلب، ناهيك عن امتلاك الرقاب ترافق معظم الحملات العثمانية على الايزديين.

ومما هو جدير بالذكر ايضا، كان الولاة احيانا تتخذ منها وسيلة للتقرب بواسطتها من السلطان ودوائر استنبول، فيفوزون برضا المسؤولين فيها وينالون الحظوة لديهم، ولكي يحصلوا هؤلاء الولاة على ثقة السلطان، يعمدون غالباً الى ارسال بعض الرؤوس الايزدية المقطوعة الى استنبول لتكون دليلاً للظفر على تلك المناطق المنكوبة. كذلك كان تماطل الايزديين في دفع الضرائب الى الدولة، اما بسبب عدم قدرتهم على دفعها نتيجة لسوء ظروفهم الاقتصادية او بسبب تعسف جباة الضرائب العثمانيين في جباية الضرائب منهم^(١). فضلا عن امتناع الايزديين في اداء الخدمة العسكرية في الجيش العثماني الذي كان عاملاً اخرًا للفتك بهم.

كانت القوة المسلحة تعد الاسلوب الاكثر شيوعاً في تعامل سلطات ايلاتي بغداد والموصل مع الايزديين، لذلك تعرضت مناطقهم الى العديد من الضربات العسكرية. ورغم ان جميع تلك الحملات تتشابه مع بعضها البعض الى حد كبير من حيث انها كانت تصاحبها القسوة والبطش بدون رحمة وشفقة مع الغدر في بعض الاحيان، ولكن حملات بغداد كانت تتميز عن تلك الحملات التي توجهها ايلالة الموصل في العديد من النواحي، اذ انها كانت تتمتع بشكل عام بوضوح الهدف والضخامة ودقة اكبر في التنظيم كما كانت اكثر حظاً في تحقيق اهدافها، اما حملات ولاة الموصل فكانت اشبه بغارات عشائرية محدودة هدفها النهب والمغانم المادية فقط، كما لم حالفها النجاح دائماً^(٢).

كذلك تميزت تلك الحملات بحشد كافة القوى الممكنة لتسليطها على المناطق الايزدية، فبالاضافة الى الهجمات المشتركة لايالاتي بغداد والموصل كانت غالباً تلحق بهما قوات اخرى^(٣) من الاغوات الكورد^(٤) والعديد من العشائر العربية^(٥).

- حملة حسن باشا عام ١٧١٥ :

ان الحملة التي قادها والي بغداد حسن باشا (١٧٠٤ - ١٧٢٣) (١١) في سنة ١٧١٥ تعد من اكبر الحملات العثمانية التي شنت ضد الايزديين خلال القرن الثامن عشر^(١٢)، حيث حشد حسن باشا جيش كبيرة ضمت بينها قوات من شهرزور وبعض

البيكات الكوردية^(١٣)، وسار به صوب سنجار، فرغم ضخامة جيشه واستخدامه المدفعية الا ان الايزديون عزموا على المقاومة فتحصنوا في موقع بالجبل يقال له دير العاصي^(١٤) واتخذوها كملاذ للدفاع عن انفسهم^(١٥)، وتصدوا للحملة بعد ان قاموا المتاريس والطوابي الدفاعية هناك^(١٦) وعندما قاربهم العسكر العثماني "ابتدروه بالنزال، وقابلوه بالحراب والنبال، وقاتلوه بالاحزاب والابطال فاشتعلت بينهم نيران الحرب، وكثر بين الفريقين الطعن والضرب"^(١٧)، ولكن الايزديون لم يتمكنوا من الصمود امام هذا الجيش الشرس الذي يفوقهم في العدد والعدة والذي واصل هجومه على حصونهم وبطشت بهم وقتلت خلقا عظيماً منهم وفرقت جموعهم^(١٨)، وهرع من تمكن منهم النجاة، بعياله ورجاله وخيله الى اخر معقل لهم يدعى (الخاتونية)^(١٩)، فلاحقهم القوات العثمانية وحاصر القلعة المذكورة من جميع جهاتها^(٢٠)، لكن المحاصرون لم يبقوا مكتوفي الايدي تجاه هذا التنكيل ولهم من القوة والشجاعة ما ليس للجيش الحكومي^(٢١) فغامروا في التصدي للحملة التي يعرفون صعوبة الانتصار عليها يبدو انهم قد تعود على معاملة العسكر العثماني في الحملات السابقة، لذلك فضلوا الموت على الاستسلام، فدارت معركة ضارية قتل فيها الكثير من رجال الطرفين من بينهم كهية الوالي^(٢٢)، وفي اليوم التالي بعد ان بأسوا من القتال وتيقنوا بانه ليس بمقدورهم الاستمرار في القتال، اضطروا الى طلب الامان من حسن باشا، فمنحهم الاخير الامان والعفوا الا انه نكث وعده وغدرهم، فقتل الكثيرين منهم من بينهم عدد من مشاهير رجال جبل سنجار وهم ديللو، مندو، عباس اخو مندو، خركي وسواس، هكذا كان النصر حليف قوات حسن باشا^(٢٣). وارخ الشعراء والكتاب هذه الحملة به (غزاء حسن)^(٢٤). ومما يجدر الاشارة اليه ان الذين وقع عليهم هذا التنكيل، اغلبهم من السموقيون والقيرانيون سكان شمالي سنجار لقربهم من الخاتونية التي لجأوا اليها وكان تنكيلا قاسيا ومرأاً، حيث لا زال الايزديون يذكرونها في اغانيهم الشعبية ويتوجعون لها^(٢٥).

تختلف المصادر التاريخية بشأن وصف تلك الحملة وما قام به عسكر حسن باشا من الاعمال اللا إنسانية إزاء ايزدية سنجار انذاك من قبيل السلب والنهب والقتل

وسبي النساء والبنات، ويذكر ياسين العمري^(٢٦) بهذا الصدد... "ونهب بعض القرى فيه، وقتل من البيزدية خلقاً كثيراً، وغنم منهم مالا جزيلاً، وملك اغنامهم وأسر من اطفالهم ونسائهم، وعاد منصوراً" وفي كتابه غاية المرام يذكر "احل باهله الدمار ونهب وسلب وقتل وعطب حتى اذلهم وافقر غنيهم"^(٢٧)، اما السويدي فيقول^(٢٨): "... هلك اكثر خيلهم ورجال من بندق التفك ورشق النبال فدخل القرية عنوة ومحققهم بسيف الانتقام وحصل بذلك للمسلمين الانتظام واسر النساء والاطفال واغتتم الجند الاموال، وابتاعوا نساءهم وبناتهم واما هم وعاد الوزير منصوراً...".

وبعد نجاح حملة حسن باشا وبسط سيطرته على ايزدية سنجار، قام بتفويض حكم المنطقة الى رئيس قبيلة طي العربية محمد الذياب التي اصبحت تابعة لولاية بغداد^(٢٩). ولكن رغم الاجراءات الصارمة التي اتخذها حسن باشا في حملته المذكورة، الا انه يبدو لم يحقق له ما اراده، لذلك عاد في عام ١٧١٨، غز جبل سنجار مرة اخرى، فقتل من اهلها الرجال واسر العيال واغتتم الاموال ورجع^(٣٠).

- حملة احمد باشا عام ١٧٢٢:

شن احمد باشا الذي خلف والده حسن باشا في ولاية بغداد (١٧٢٣ - ١٧٤٧) اول حملة عسكرية على ايزدية منطقة الشيوخان سنة ١٧٣٣، حيث ارسل العساكر فنهبوا قرى الايزدية على الزاب الكبير ثم تبعهم والي الموصل حسين باشا الجليلي واخذ ما نهبوا وعاد^(٣١).

- حملة سليمان باشا عام ١٧٥٢:

وبحلول النصف الثاني من القرن الثامن عشر، تجددت الحملات العسكرية العثمانية ضد الايزديين في كردستان الجنوبية، وبالتحديد توجهت في عام ١٧٥٢، حملة عثمانية ضخمة تحت قيادة والي بغداد سليمان باشا ابو ليلة (١٧٥٠ - ١٧٦٢) لإخضاع الايزديين في سنجار وتقويض قوتهم التي اصبحت تهدد مصالح الدولة العثمانية حسب ما كانت تراه^(٣٢). ضمت الحملة العديد من العشائر العربية مع قوات

بعض الامارات الكوردية الى جانب جيش الموصل الذي انضم اليها عندما وصلت الحملة المدينة المذكورة. ويبدو ان الايزديين قد علموا بامرها مبكرا وعرفوا بصعوبة ملاقاتها، لذلك ذهب بعض رؤسائهم الى الوالي طالبين الامان والعفو حينما كانت الحملة لا تزال في كركوك، ولكن ابو ليلة تمكن بدائه من استغلال ذلك الانشقاق الذي دب في صفوف الايزديين لكسر شوكتهم. فأمر بترحيل ثلاثة آلاف ايزدي من اولئك الذين تخلوا عن اشقائهم الى جهات ماردين، بعد ان اعطاهم ما طلبوا من العفو والامان. اما فيما يتعلق بوقائع الحملة بعدما وصلت سنجار فتتضارب الروايات حولها، اذ تذكر الرواية الايزدية المحلية بان السكان لاذوا بالفرار لاجئين الى الكهوف والمغارات عندما علموا بضخامة الحملة، فلجأ سليمان باشا الى الحيلة لاستدراجهم وذلك حينما ارسل الى بعض عشائهم ليلبغهم استعدادا للعفو عنهم شرط ان ينزلوا مع اولادهم ونسائهم واموالهم عارضين عليه الدخالة. فقبل الايزديون ذلك مضطرين ولكنهم طوقوا بالجنود وجردوا من اسلحتهم بعد تطمينهم، ليتعرضوا اثناء الليل الى عملية ابادة لم ينج منها الا بضعة اشخاص، وذلك باستثناء النساء اللاتي تعرضن للسبي. ويؤيد الدمولوجي هذه الرواية التي حفظتها حسب اعتقاده الاناشيد الشعبية التي يرتلها الايزديون في نواديهم بطريقة مثيرة للعواطف. اما ياسين العمري فيؤيد هذه الرواية ضمناً، اذ يدون^(٣٣) في زبدة الاثار: "ثم نزلوا يطلبون منه الامان، واقاموا في واد هناك، فامر العساكر فحملوا عليهم من كل مكان، وقتلهم عن اخرهم، وكانوا اكثر من الف رجل ومعهم بعض النساء وقتل من العسكر نحو مائتين"^(٣٤). ويحاول نفس المؤلف في مكان اخر ان يجد تبريراً للوالي في غدره هذا فيذكر بانهم حاولوا الغدر بالجنود فاحس بهم الوالي "وامر بقتلهم فقتلوه عن اخرهم وسبي نسائهم وطفالهم". اما المصادر الاخرى التي تمثل وجهة النظر العثمانية فكان من الطبيعي ان تهمل صفحة الغدر بالايديين، وذلك في الوقت الذي يفتخر سليمان باشا نفسه بما فعله من قتل وسبي ونهب وتدمير ليتمكن بذلك من السيطرة على طرف القبلة من جبل سنجار^(٣٥).

الا ان مهمة الوالي المذكور لم تنته بهذه السهولة اذ تحصن الباقون من السكان في ذروة جبل عال بطرف الشمال يقال لها قلعة بولاد فاضطر الى تحويل قواته الى تلك الجهة. وعندما قاوم اولئك المتحصنون مقاومة ضارية رغم النيران التي انهالت عليهم من بنادق ومدافع القوات المهاجمة، لجاء الوالي الى الضغط عليهم بواسطة قطع المياه الجارية عنهم مما اثر في مصير مقاومتهم، فاستولى الوالي على القلعة وبلغ عدد من قتل فيها اكثر من ثلاثة آلاف رجل غير النساء والاطفال الذين زهقت ارواحهم اثناء اشتداد المعركة، فتم ارسال ثلاثة مائة راس مقطوع الى استنبول. اما النساء والاطفال الذين وقعوا في ايديهم وكانوا يبلغون اربعة آلاف وخمسمائة فقد اصبحوا غنائم وتضاف الى ما حصلوا عليها من اموال وممتلكات الايزديين المقهورين^(٣٦) ، ويقول الكركوكلي بهذا الصدد " فلما وصل الوزير بجنوده ضيق عليهم الحصار واصلاهم ناراً واسراً، وسبى نساءهم، وغنم اموالهم واسلحتهم، ودمر اماكنهم، واقتلع بساتينهم واحرق مزارعهم، وحز اعناق الكثيرين من رجالهم، وارسل نحو ثلاثمائة رأس منهم الى الاستانة، ثم عفا عن الباقين وعاد الى بغداد"^(٣٧). ويدل ذلك على عظم الكارثة التي حلت بالايديين. فنال الوالي بواسطة هذه الحملة، كما فاز بمدح الشعرا الذين انشدوا بانتصاره^(٣٨). فضلاً اهدائه السلطان خلعة ووساما من الفرو الفاخر تقديراً لانتصاره في حملة سنجار^(٣٩). كما ارسل بهدايا اخرى لكثير من رؤساء القبائل الكوردية والعربية والوجوه الذين شاركوه في الحملة العسكرية على سنجار وقد قام بتوزيع هذه الهدايا والوسمة باحتفال مهيب^(٤٠).

تأسيساً على ما سبق ان السياسة التي مارستها الدولة العثمانية ازاء الايزديين خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر كانت سياسة عسكرية قاسية استهدفت الى كسر شوكت الايزديين الذين لم يتعودوا على الخضوع لسلطة الحكومات المركزية، وقهرهم بالقوة واخضاعهم لسيطرتها المباشرة، حيث تمخضت عن تلك السياسة اضطهاد الايزديين وجلبهم الكثير من المأسي والمتعاب.

المصادر الهوامش:

- ١- عدنان زيان فرحان، الكرد الايزديون في اقليم كردستان، (السليمانية: ٢٠٠٤)، ص ٣٩.
 - ٢- زهير كاظم عبود، لمحات عن اليزيدية، (بغداد: ١٩٩٥)، ص ٧٥.
 - ٣- سعدي عثمان حسين، كوردستان الجنوبية وإيالتا بغداد والموصل، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب جامعة صلاح الدين- ٢٠٠١، ص ١٤٩.
 - ٤- جون س. كيسست، الحياة بين الكرد... تاريخ الايزديين، ترجمة: عماد جميل مزوري، (اربييل: ٢٠٠٥)، ص ١٣٩.
 - ٥- ينظر: علي شاکر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني، (نينوى: ١٩٨٥)، ص ١٠٨-١٠٩.
 - ٦- سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص ١٥١.
 - ٧- المصدر نفسه، ص ١٥٤.
 - ٨- المصدر نفسه، ص ١٥٣.
 - ٩- علي شاکر علي، تاريخ العراق...، ص ١١٠.
 - ١٠- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، (المكتبة الحيدرية: د.ت)، ص ٢٩. سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص ١٥٣.
 - ١١- ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، ط٦، (بغداد: ١٩٨٥)، ص ١٥٤، ١٦٣. علي شاکر علي، علاقة الموصل بالولايات العراقية الاخرى ١٥١٦-١٩١٨، بحث ضمن موسوعة الموصل الحضارية، مج ٤، (جامعة الموصل: ١٩٩٢)، ص ٢٦.
 - ١٢- علي شاکر علي، تاريخ العراق...، ص ١١٠؛
- Roger Ilescot, yezidiler, fransiz cadan çevirer: Ayşe Meral, (Istanbul:2001), S.113.
- ١٣- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، ص ١٩٢؛ سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص ١٥٤.
 - ١٤- تطلق دير العاصي على وادي في جبل سنجار خلف المدينة مباشرة، حيث تكثر فيه الكهوف والمواقع المتحصنة.
 - ١٥- علي شاکر علي، تاريخ العراق...، ص ١١٠.
 - ١٦- علي شاکر علي، تاريخ العراق...، ص ١١٠؛ حسن ويس يعقوب المولى، سنجار في العهد العثماني دراسة سياسية، ادارية، اقتصادية ١٨٣٤-١٩١٨، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الاداب / جامعة الموصل _ ٢٠٠٠، ص ١٣.
 - ١٧- عبد الرحمن السويدي، حديقة الزوراء والدوحة الوزراء، د.م: د.ت)، ص ٦٤.
 - ١٨- نظمی زاده مرتضی افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (بغداد: ١٩٧١)، ص ٣٢٩.

- ١٩- الخاتونية: وهي قلعة مربع الشكل ومسورة بسور صغير، محكمة البناء، تقع في رأس جبل سنجار الغربي. ينظر: حسن ويس يعقوب المولى، المصدر السابق، ص٧٦.
- ٢٠- عبد الرحمن السويدي، المصدر السابق، ص٦٦؛ ياسين بن خير الله العمري، زبدة الاثار الجليلة في حوادث الارضية، مطبعة الاداب، (التحف: د.ت)، ٨٠؛
- Roger lescot, A.g.e., S.113.
- ٢١- صديق الدمولوجي، اليزيدية، (الموصل: ١٩٤٩)، ص٤٨٩.
- ٢٢- ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص١٥٧؛ عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص٤٢.
- ٢٣- نظى زاده مرتضى افندي، المصدر السابق، ص٣٢٩؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، ص١٩٢.
- ٢٤- حسن ويس يعقوب المولى، المصدر السابق، ١٣.
- ٢٥- صديق الدمولوجي، المصدر السابق، ص٤٨٩.
- ٢٦- ياسين العمري، المصدر السابق، ص٨١.
- ٢٧- عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص٤٢.
- ٢٨- عبد الرحمن السويدي، المصدر السابق، ص٦٦.
- ٢٩- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، ص١٩٢؛ علي شاكور علي، تاريخ العراق...، ص١١٠.
- ٣٠- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، ص١٩٦-١٩٧.
- ٣١- حسن ويس يعقوب المولى، المصدر السابق، ١٣؛ عباس العزاوي، تاريخ اليزيدية واصول عقيدتهم، (بغداد: ١٩٣٥)، ص١١٨؛ عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص٤٣.
- ٣٢- علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠-١٨٣١، (بغداد: ١٩٧٥)، ص٣٠؛ عدنان زيان فرحان، المصدر السابق، ص٤٣.
- ٣٣- رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة: موسى كاظم نورس، (بيروت: د.ت)، ص١٢٥؛ سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص١٥٦.
- ٣٤- ياسين بن خير الله العمري، المصدر السابق، ص١٠٨.
- ٣٥- سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص١٥٦.
- ٣٦- المصدر نفسه، ص١٥٧.
- ٣٧- رسول الكركوكلي، المصدر السابق، ص١٢٥.
- ٣٨- سعدي عثمان حسين، المصدر السابق، ص١٥٧.
- ٣٩- ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٢٠٤؛ علاء موسى كاظم نورس، المصدر السابق، ص٣١.
- ٤٠- رسول الكركوكلي، المصدر السابق، ص١٢٥؛ ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر نفسه،